قصائد

. صالح الرحّال*

في المحطة الآسيوية

في المحطَّةِ الآسيويَّة،
قطارٌ ومجموعةٌ منْ بَشَرْ،
بَعضُها واقفٌ، بعضُها يَشْربُ الشايَ،
بعضُها سادرٌ، وبضعٌ يَخبُّ إلى
غايةٍ أوْ مَصيرْ.
ثَمَّ طفلٌ يَبولُ على سكَّةِ سيْرِ
القطاراتِ مُنتصباً كالعَلَمْ.
هُناكَ فتاةٌ تُمارسُ لُعبةَ حوَّاءَ
في صدْرِ شابٍ حليقْ،
يَذوبُ إذا حَدَّقَتْ، ويَذُوبُ إذا أغمضَتْ،
ويذوبُ إذا ذَوَّبَتْ ضحكتَها في المكانْ.
في المحطَّةِ الآسيويةِ، كُومةٌ من مَتاعٍ،
هناكَ، وبعضُ اللصوصِ يسيرون في
حَذَرِ الخُنفساءِ،
ورابطةٌ للتسوُّلِ يستعرضونَ الزِّحامْ،
وأمٌّ وأطفالُها حولَها يَملؤون
حناجِرَهم
بالدعاءِ، لِمَنْ يَمرقُ كالسهمِ،
عَلَّهْ...
....
هناكَ يسيرُ بطيئًا كما تَفْعلُ
السلحفاةُ
وينظرُ في ساعةٍ سَوَّرَتْ مِعْصمَهْ.
يَمُرُّ القطارُ، القطاراتُ، واليومُ
والليْلُ والصيفُ والثلجُ،...
يبقى يُحدِّقُ في ساعةِ الوقتِ.
والريحُ تَصبغُ لِمَّتَهُ بالبياضِ
الشفيفِ،
وتأخذُ مِنْ بُؤبؤيْهِ البريقْ،
وتُلبسُ سِحنتَهُ بالخريفِ الذي لا
يسافرُ.
فجأةً،
وَيُصدَمُ هذا الغريبُ بساعتِهِ
الواقفَهْ،
وَيُصدَمُ في زَمَنٍ خانَهُ، وَمِنْ سَفَرٍ
ثابتٍ في محطّتِهِ المُشرَعَهْ.
يُقرِّرُ....
ما زالَ وقْتٌ بجعبتِهِ،
سيُوصلُهُ في أمانٍ إلى...
إلى أين يا صاحبي!؟
ويصعَدُ أوَّلَ قاطرةٍ قادمهْ.
....
يتقاسَمُ السَّفْرُ أسمالَهُ، ويبيعونَ
ساعتَهُ الواقفهْ، وَ...
وَيُلقونَ جُثَّتَهُ في المسافةِ بيْنَ
المحطّاتِ، بَعْدَ حنوطٍ وترتيلةٍ
للطقوسْ.
ويُنْهون طَقْسَ الفجيعةِ في مقصفِ
القاطرهْ،
وبين الأكُفِّ
تلوحُ كؤوسٌ من الجعَّةِ الباردهْ.
في المحطّةِ الآسيويّةِ شيءٌ
غامضٌ ومُثيرْ...

المُختارُ وزوجُهْ

إنّها امرأةٌ وادعَهْ،
هكذا صوَّرَتْها الصُحُفْ،
وَتُمسكُ سُبَّحَةً منْ خَزَفْ،

* ـ شاعر من سوريا

وربَّما تُصلِّي، كُلَّ يومَيْنِ مرَّةً،
وربّما تصومْ.
لكنّها إذا استشاطَتْ، جمعَتْ
من صدرها السُّمومْ،
ثُمَّ أَرْغَتْ وزمجَرَتْ،
وصَوَّبَتْ مخرزَها الرحيمْ،
لِصبيةٍ وعانسٍ وأَيِّمٍ غريقْ،
وَبسملَتْ، وحوْقَلَتْ،
وأشعلَتْ في جلدِها الحريقْ...
وزوجُها الجميلُ، ذو العباءةِ القَصَبْ،
بِشاربَيْنِ التَصقَا على شَفَهْ،
وامتلأا بالمسكِ والعبيرْ،
يقولُ في صباحِه:
«يا ربَّنا المَسيرْ!»
وفي ابتداءِ شُغلِه:
«فَلْتَملؤوا مخازنَ الأميرْ!»
وفي نهايةِ العَمَلْ، يُوزِّعُ الحِصَصْ،
على الخفيرِ والعَسَسْ،
وضاحِكًا من فَرْطِ ما كَدَسْ.
وحينَ يبدأُ الغُروبْ،
يسيرُ مخفوراً إلى حَمَّامِه،
لينتشي، ويغسلَ الذنوبْ.
وبَعدَها، يدقُّ طبلَهُ
لسهرةٍ ماجنةٍ لَعوبْ.
وبعدَها، وبعدَها،
لا بُدَّ مِنْ سَجَّادَةٍ
لِيَخْتمَ المسيرْ...

الخُبْز

في ليلةٍ ساغِبَةٍ وجاحِدَهْ،
صَمَّمْتُ.. أمضي في طريقِ غُربتي،
وباحثًا عن الرغيفْ،
وحاملاً عَصًا، أَهُشُّ فيها،
مُبعِداً عن جَسَدي الذئابْ.
وكنْتُ ألتقي مُشَرَّدًا في كلِّ مُفْتَرَقْ،
أشدُّهُ، يشدُّني، نَسيرْ.
وبعدَ ليلةٍ وليلةٍ، وزمَنٍ منَ الضَنى،
وكنتُ، كُنَّا نأكلُ البقولْ،
ونرتدي الفصولْ،
كُوفيَّةً، رِداءْ؛
شعرْتُ أنَّ عُصبَتي قدْ أصبَحَتْ فضاءْ.
وقفْتُ بينَ جَمْعِها، كالشيخِ في الحقولْ،
مُردِّدًا أقولْ:
فأنتمُ الصباحُ والأفولْ،
وأنتمُ الذَّهابُ والقُفولْ،
سيروا إلى خبزِكُمُ وخلِّصوهْ،
ومزِّقوا الطُغاةْ، مَنْ قتلوا الحَياةْ،
وجَمعوا أهراءَهُمْ من أرضِكُمْ، أجسادِكُمْ،
أبنائكمْ، ونَسوةٍ في سيْرِها الثقيلْ.
وكانَ صوتي يرتدي القَضاءْ،
كأنَّهُ سَماءْ.
وسرْتُ فيهم ليلةً كَقمرِ التِّمامْ،
ندقُّ دَرْبنا بعزْمنا الحديدْ،
وَيَدُنا وعقلُنا: إرادةٌ تُحرِّرُ العبيدْ.
وحينَ جاءتِ المُواجهَهْ، وحُرِّرَتْ قيودْ،
وَقُطِّعَتْ رقابُهم بالسيفِ والسكّينْ،
تَصدَّرَتْ قافلةٌ وأعلَنَتْ:
حُريَّةَ البلادْ،

وأنّها قدْ حَرَّرَتْ أنفُسَها
وشعبَها الحزينْ،
وَقَبَعَتْ في غرفةِ الدَهاءْ،
تُصدِّرُ الأوامِرْ،
وتَبتني القصورْ،
وتأخذُ الرغيفَ والغذاءْ،
ذَريعةً،
وأنّها مُوكَلَةٌ بالذودِ والفِداءْ،
وكُلُّ شيءٍ عادَ لِلوراءْ!

تأشيرةُ خروجْ

سأَخْرجُ منْ وَطَنٍ أدمنَتْهُ القذاراتُ،
أدمنَهُ الدودُ والمسخراتُ،
وهذا الصَدَأْ.
وأَخْرجُ من جلدهِ ناشراً جُبَّتَهُ
في المنافي، دليلاً ومعلَمَ
أنِّيَ كنتُ القتيلَ وكانَ القتولْ.
وأَخرجُ من إرثِه،
إرْثِ عنترةٍ والبَسوسِ، وتلكَ
الصحارى، تُمزِّقُ أضْبابَها الظهيرةُ،
والشمسُ فوقَ القَحَفْ.
وأَخْــرجُ من كلِّ حَــرْفٍ، تَســيلُ
القصيدةُ
إمّا يُلامسُهُ خنجرٌ أوْ بَتولْ.
وأخرجُ، أخرجُ..
حتّى كأنّيَ ما كنتُ قَبْلاً،
ولا كانَ ذاكَ «الضَليلُ،» «الصريعُ،»
«النُواسيُّ» و«المُتنبِّي» وأشباهُهُ،
وَصِبْيَتُهُ أَوْ حَلَبْ.
وأخــرجُ لا أعــرفُ الوقْتَ والسَّنَةَ
المُقبلهْ،
وأُمِّي... الرَمَيْتُ المسافاتِ
ما بيْننا، واتَّكأْتُ على جرحها
طاعِنًا في الشِّقاقْ.
وأخرجُ حتّى أبي لا أراهُ،
وحتّى الحقولُ، وحتى الحَصى.
سأصنعُ من كَبِدي طائرهْ،
وأَعْلُو، وأعلو،
فإنْ جاءني الشَّرُّ مِنْ مَشرِقٍ،
تَخذْتُ الغروبَ سَبيلْ.
وإنْ جاءني القَهرُ منْ شَمأَلٍ،
تخذْتُ الجنوبَ دليلْ.
وإنْ جــاءني الموتُ من كلِّ تلكَ الجهاتْ،
أمــوتُ، أمــوتُ هناكَ بأعلى المقاماتِ،
تأكلُني الطيْرُ،
لا أَرضُ، لا إرْثُ، لا أُمٌّ، لا أَصْلُ،
لا شيءُ، مَحضُ غُبارٍ،
ومحضُ فراغٍ قتيلْ...

إدلب